

"حي الخليفة" بقلم معصوم مرزوق

قراءة في زمكانية النص

بقلم: منال الشربيني

مقدمة:

تقدم قصة مرزوق، م. حي الخليفة¹ صورة حية لحي شعبي في القاهرة، مع ما يحمله من تناقضات اجتماعية وثقافية، و تعكس تفاصيل الحياة اليومية، مشيرة إلى تعقيد العلاقات الإنسانية والأخلاقيات، وفيها يتجسد توظيفه الأحداث الواقعية، والشخصيات النمطية من أجل تسليط الضوء على كل من الصراع الداخلي والخارجي الذي يعيشه أهل الحي.

ومعروف عن معصوم مرزوق أنه كاتب يتبنى توجهات نقدية اجتماعية؛ تعكس أعماله التفاوت الطبقي، الفقر، والظلم الاجتماعي في المجتمعات العربية.

تنتمي القصة إلى المدرسة الواقعية² حيث تصور تفاصيل الحياة في حي شعبي مزدحم بالقضايا الاجتماعية والمشكلات اليومية. وفيها يسدد ضربات نقدية واضحة تتعلق بالفقر والظلم وتضارب الأخلاق.

من منظور النقد التفكيكي الذي طرحه الفيلسوف جاك دريدا، تعج "حي الخليفة" بالرموز المتعددة مثل "الشيخ التائه"، "حسونة المقص"، "أم زغلول"، و"المأمور". كل هذه الشخصيات تمثل حالات نفسية واجتماعية تُظهر هشاشة العلاقات الاجتماعية والانهيال الداخلي للقيم.

وأرى، من نفس زاوية دريدا أن النصوص قابلة للتأويل إلى ما لا نهاية، ولا يوجد معنى واحد مطلق للنص³، ومن هنا، ألج إلى عالم مرزوق، م. حي الخليفة.

ما إن تصفحت القصة وقعت عيناى على هذه الفقرة:

"...ويعرفه الكبار بإسم " الشيخ التائه " ، والسر في هذه التسمية مات في اعماق أول من أطلقها عليه ، وهو رجل مجهول ، وأحياناً ينادونه " ياجربان " هازئين به رغم أنه لا يحك جلده ولا يهرش .. ينفحونه من حين إلى آخر بعض القروش ، يتقبلها غير شاكر ، ناظراً في عين المتصدق بتحد .."

¹ مرزوق، م. حي الخليفة.

² Lukács, G. (1971). *The theory of the novel*. MIT Press

³ Derrida, J. (1997). *Of Grammatology*. Johns Hopkins University Press.

تعتبر شخصية "الشيخ التائه" امتدادًا لسلسلة طويلة من الشخصيات الوجودية في الأدب العالمي. حيث يشترك مع شخصية "المغترب" في رواية "الأجنبي" لكامو⁴ في الشعور بالغربة والعزلة عن المجتمع. كلاهما يواجه صعوبة في التواصل مع الآخرين، ويشعر بعدم الانتماء إلى أي مكان، ويشبه أبطال سارتر⁵ المتمردون الذين يرفضون القيم الاجتماعية التقليدية ويبحثون عن معنى خاص بهم للحياة. كلاهما يختار الحرية الفردية على الرغم من العواقب، ومع الإنسان المتأمل في فلسفة نيتشه⁶ في البحث عن المعنى والهدف وراء الحياة.

تلعب اللغة دورًا حاسمًا في بناء شخصية "الشيخ التائه"، وتعميق فهمنا لها إذ يحمل اسم "الشيخ التائه" دلالات عميقة، تشير إلى حالة الانحراف عن المسار الطبيعي للحياة، فقدان الهوية والمعنى. وعكست اللغة البسيطة والمباشرة في وصف الشخصية عمق العزلة التي يعيشها؛ عملت عبارة "الحقبة الجلدية، ولقب "يا جربان"، على تعزيز عمق الشخصية وتضمينها معانٍ إضافية. وعلى الرغم من بساطة اللغة، إلا أنها تحمل في طياتها قدرًا من الشعرية، مما يضيف على الشخصية بعدًا روحانيًا فقد جاءت اللغة كأداة لبناء الشخصية من ناحية التعبير عن العواطف والمعاناة التي يعيشها "الشيخ التائه"، و بناء هويته الشخصية، وتحديد سماتها المميزة،

ولكن، تُرى! كيف يمكن أن تتغير شخصية "الشيخ التائه" لو تغيرت الظروف المحيطة به؟
ويقول الكاتب أيضًا:

" لعنت ولطمت وسبت سنسفيل جدود الكفرة والظالمين والتزام ومخترع الترام و ... انتعشت تجارتها في غياب رجلها ومعه رجال المباحث ، وأجرت بعض التعديلات علي العربية فأضافت إليها لوحين من الزجاج واشترت باجوراً أكبر .. أصبح المأمور أحد زبائننا ومعه بعض المخبرين الذين يتطفلون عليها من حين لآخر ... تذكر زوجها الراحل أحياناً :

- كان ... يضع رزق العيال علي الحشيش ..

- أيامه سوداء ..

- بركه إن ربنا زاحه ... "

⁴ عمر، أ. (2023). شخصية المغترب في رواية الأجنبي: تحليل نفسي. في م. علي (المحرر)، دراسات في الأدب الفرنسي (الصفحات 120-145). دار الكتب الجامعية: القاهرة.

⁵ Noiré, G. (2010). *Dire la vérité au pouvoir. In Les intellectuels en question* (pp. 101). Agone: coll. « Éléments ».

⁶ Belliotti, R. (2013). *Jesus or Nietzsche: How Should We Live Our Lives?* Rodopi. pp. 195-201.

لمّا تزل هذه الفقرة تعكس حالة المرأة المصرية، حيث تتجسد معاناة المرأة وصبرها وقوتها في شخصية "أم زغلول" فقد تحملت المسؤولية بعد وفاة زوجها، وواجهت تحديات الحياة بصلاية. واستطاعت أم زغلول أن تتأقلم مع الظروف الصعبة التي فرضتها عليها الحياة، حيث حولت عربتها إلى مصدر رزق لها ولأولادها.

الرمزية في "الكرشة" هنا ليست مجرد طعام، بل هي رمز للكفاح من أجل العيش، والصعوبات التي تواجهها المرأة العاملة، وتنتقد القطعة الأدبية بعض العادات والتقاليد المجتمعية، مثل لجوء المرأة للعمل في مهن قد تكون غير مرغوبة اجتماعياً، وتأثير الفقر على حياة الناس. و يظهر في النص صورة عن المجتمع الذي يعاني من العنف والظلم⁷، حيث يموت زوج أم زغلول بسبب صراعه مع السلطة، رغم أنه هو في حد ذاته يمثل الظلم والسطوة والعنف واللامسؤولية والأناية وفق شهادة أم زغلول ضده:

"...تذكر زوجها الراحل أحياناً :

- كان ... يضيع رزق العيال علي الحشيش ..

- أيامه سوداء ..

- بركه إن ربنا زاحه ..."

رغم كل الصعوبات التي تواجهها، تظهر المرأة كقوة قادرة على الصمود والتحدي، لكنها لم تذكره بخير في تناقض بين مع لطمها وصراخها وثورتها على الأمور وتعقيبها على موته: "كان يبضيع رزق العيال على الحشيش، أيامه سوداء، بركة إن ربنا زاحه"، في تجسيد لمعاناة نفسية عميقة مع زوجها حياً وميتاً. أم زغلول، وهي المعادل الموضوعي للمرأة العاملة عموماً، رغم الصعوبات، تستطيع بمفردها أن تبني حياة جديدة لنفسها ولأولادها.

أما في هذه الفقرة المفصلية، يقول معصوم عن المأمور:

"...ابتسم في هدوء .. تصور مذبحه القلعة ، الرصاص يحصد الممالك .. تساءل : من أي إتجاه قفز مراد

بك بحصانه ؟ .. تطلع إلي النوافذ البعيدة .. خلف أي نافذة قتلت شجرة الدر زوجها بالقباقيب ؟ .. عاد ينظر

إلي الناس .. عيونهم مطفأة ذابلة ، أعوادهم ناحلة ضامرة كأنهم تائهون .. و ..."

تقدم لنا هذه الفقرة التأملية لمحة عميقة في نفسية شخصية المأمور، حيث تكشف عن تناقضات داخله وأفكاره المعقدة. يظهر المأمور كشخصية متناقضة، فهو من جهة يمثل سلطة القانون والنظام، ومن جهة أخرى يحمل في داخله رغبة في العنف والسلطة. ويبرز هنا التناقض النفسي⁸ الذي يعانيه المأمور من

⁷ Marx, K. (1992). *Capital: A critique of political economy*. Penguin Classics.

⁸ Freud, S. (2003). *The Unconscious*. Penguin Books.

خلال صراع داخلي، عكسه المونولوج الداخلي، الذي تمزق بين دوره كحامٍ للقانون، ورغباته الشخصية. فهو يظهر اهتماماً بالتاريخ الدموي لبلاده، ويتخيل نفسه في أحداث الماضي، مما يشير إلى وجود جانب مظلم في شخصيته. فهو من ناحية يرتبط بالسلطة؛ كونه مأمور القسم، ومن الأخرى، يظهر كشخص فاسد يستغل منصبه لتحقيق مصالح شخصية، و رغم وجوده وسط الناس، يشعر بالعزلة والوحدة، وهو ما يتجلى في نظراته إلى الناس وكيف يصفهم بأنهم "عيونهم مطفأة ذابلة".

ترمز أماكن بعينها مثل القلعة، وحقبة تاريخية مثلثها سلطة المماليك، وشخصية تاريخية مثل وشجرة إلى جوانب مختلفة من التاريخ والسلطة والعنف. كان مراد بك أحد أمراء المماليك، وقد لعب دوراً هاماً في تاريخ مصر. اشتهر بشجاعته وحكمته، وكان من أبرز قادة المماليك في معاركهم ضد الغزاة. أما شجرة الدر فقد كانت سيدة قوية وعاقلة، تولت مقاليد الحكم في مصر بعد وفاة زوجها. اشتهرت بحكمتها وقدرتها على إدارة الدولة في فترة صعبة. لعبت دوراً مهماً في مقاومة الغزاة المغول⁹.

تحليل الشخصيات:

الشيخ التائه: شخصية غامضة ومعزولة تسعى وراء المعنى الروحي، تحمل في داخلها عالماً خاصاً لا يفهمه الآخرون. تجسد هذه الشخصية البحث عن الهوية والمعنى في عالم مليء بالغموض، وهي تعكس شعوراً عميقاً بالغربة والعزلة.

أم زغلول، معادل موضوعي للسمود والتحدي في وجه الظلم والفقر. تجسد قوة المرأة المصرية وتعبر عن معاناة الشعب وخاصة الطبقات الفقيرة. هي أم الأمة التي تكافح من أجل مستقبل أفضل. المأمور: يجسد السلطة القمعية غير مبالية بمعاناة الشعب. يمثل الفساد والبيروقراطية في النظام، ويسعى لتحقيق مصالحه الشخصية على حساب الآخرين.

حسونة المقص: يرمز إلى القوة الجسدية المادية التي تسعى إلى السيطرة على الآخرين عبر العنف والطمع، وهو شخصية سلبية تتجه نحو التدمير بدلاً من البناء. حسونة المقص هو رمز للعنف والقوة العاشمة التي تسعى للسيطرة والتدمير. يجسد شخصية سلبية تعكس انتشار الجريمة وانعدام العدالة في المجتمع.

رمزية العبارات:

"ليل في أزقة حي الخليفة ليس كأى ليل .. أنه ثعباني له كل يوم جديد": هذه العبارة ترسم صورة قاتمة عن الحياة في الحي الشعبي، حيث الخوف والقلق يسيطران على النفوس. "الحقيبة الجلدية": كما ذكرنا سابقاً، تمثل هذه الحقيبة الغموض والأسرار التي يحملها الشخص الغامض. "مسجد الرفاعي": يمثل مكاناً للراحة والسكينة، ولكنه أيضاً مكان للتأمل والتفكير في معنى الحياة.

ابن تغري بردي، تاج الدين. (1968). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: دار الكتب المصرية⁹

"الكرشة": تمثل الصراع من أجل البقاء، وكيف أن الناس يضطرون إلى القيام بأعمال قد لا يرضون عنها من أجل العيش.

"المقص": يرمز إلى العنف والقوة الغاشمة.

الخلاصة:

تدور أحداث القصة في حي شعبي مليء بالتناقضات؛ الهوية، الثقافة، والجنس¹⁰، حيث يتداخل الواقع بالأسطورة. الليل يلف المكان بغموضه ويكشف عن صراعات نفسية عميقة تعاني منها الشخصيات. تنتهي القصة بنهاية مأساوية تكشف زيف الأحلام المادية، مؤكدة أن الحياة مليئة بالتناقضات، وهي تجسد القضايا الإنسانية المعقدة، من صراع الطبقات إلى البحث عن الهوية، في مجتمع يعاني من الفساد والعنف.

¹⁰ Eagleton, T. (2013). *Literary theory: An introduction*. University of Minnesota Press.